International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (9)
IJESA
September 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (9)

مكانة اللغة العربية: تحديات التراجع وآفاق الارتقاء من منظور سياسي

زايد عبيد الله مصباح
أستاذ العلوم السياسية، جامعة طرابلس، ليبيا
z.saeid@uot.edu.ly

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة مسألة تراجع مكانة اللغة العربية من منظور سياسي، مركزة على دور العوامل السياسية في هذا التراجع. تمت مناقشة هذه العوامل على مستويين: المستوى الخارجي، حيث يتناول التحليل تأثير سياسات النفوذ الأجنبي وما نتج عنها من تغلغل ثقافي في الوطن العربي؛ والمستوى الداخلي العربي، حيث تُبحث مكونات الغطاء السياسي المتعلقة بأنظمة الحكم العربية التي تفتقر غالبًا إلى الإرادة السياسية الجادة للنهوض الثقافي واللغوي، بالإضافة إلى ضعف تماسك النظام الإقليمي العربي ومثالب السياسات التعليمية التي أسهمت في ضعف الاستخدام اللغوي.

خلصت الدراسة إلى أن تراجع مكانة اللغة العربية يعود إلى عوامل سياسية داخلية وخارجية، أبرزها غياب الإرادة السياسية الحقيقية للنهوض الثقافي واللغوي، وافتقار النظام الإقليمي العربي إلى التماسك والمتانة، وسيطرة الاتفاقيات الانفرادية على الدبلوماسية العربية بدلًا من الاتفاقيات التكاملية، بالإضافة إلى قصور التشريعات والقوانين التي تضبط الاستخدام اللغوي.

الكلمات المفتاحية: مكانة اللغة العربية، التراجع اللغوي، العوامل السياسية، النفوذ الأجنبي، التغلغل الثقافي، الأنظمة العربية، السياسات التعليمية.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (9)
IJESA
September 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (9)

The Status of the Arabic Language: Challenges of Decline and Prospects for Advancement from a Political Perspective

Zayid Obaydallah Misbah
Professor of Political Science, University of Tripoli, Libya
z.saeid@uot.edu.ly

Research Summary

This study addresses the issue of the declining status of the Arabic language from a political perspective, focusing on the role of political factors in this regression. These factors are examined on two levels: externally, the analysis explores the impact of foreign influence policies and the resulting cultural infiltration in the Arab world; internally, it investigates the political frameworks of Arab regimes that often lack serious political will for cultural and linguistic revitalization, alongside the fragility of the Arab regional system and the shortcomings of educational policies that have contributed to weak language usage.

The study concludes that the decline in the status of the Arabic language is attributable to both internal and external political factors. Chief among these are the absence of genuine political will for cultural and linguistic advancement, the lack of cohesion and strength within the Arab regional system, the prevalence of unilateral agreements over integrative diplomacy in Arab relations, and the inadequacy of legislation and laws necessary to regulate language usage effectively.

Keywords: Status of the Arabic Language, Linguistic Decline, Political Factors, Foreign Influence, Cultural Penetration, Arab Regimes, Educational Policies

مقدمة

تعتبر اللغة عنصراً أساسياً وحيوياً في مجمل مكونات الهوية القومية لأي أمة من الأمم. فاللغة بالنسبة لامتها، تعد بمثابة اللسان للجسد، فهي وسيلة التعبير عن أحوالها وعما يكمن في وجدانها. كما أنها تحمل دلالة رمزية تعبر، صدقاً، عن وجودها وإرثها التاريخي الحضاري والثقافي وكل نواياها ومقاصدها. وكما يقول العلامة العربي الشهير ابن خلدون؛ << اعلم أنّ اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام >>[1].

ليس لدي أدنى شك في أن علاقة الترابط بين اللغة وأمتها تظهر بصورة واضحة وجلية، وعلى قدر أعظم، في ترابط العرب بلغتهم. فاللغة العربية تشكل الركن الأقوى، بل العنصر الرئيسي الذي يرسم هوية العرب القومية. وهذا ما تشير إليه أدبيات القومية العربية[2]. فقد اعتبر ساطع الحصري، أبرز أقطاب القومية العربية، إن اللغة هي المرتكز الأقوى والرباط الأكثر متانة، من أي عنصر آخر، في تكوين الأمة[3]. ويشير الباحث في تاريخ الحضارة العربية ناجي معروف؛ إلى إن اللغة العربية من أقوى وسائل الترابط بين العرب [4]. وفي هذا السياق يكون من المفيد الاستدلال، أيضاً، بما أشار إليه أستاذ التاريخ السياسي بيير رينوفان (Pierre Renouvin) وزميله جان دوروزيل (J.B.Duroselle) في كتابهما الصادر في عام 1964 بعنوان ((مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية))، والذي أشارا فيه إلى إن دور عامل اللغة متفوق في منشأ الحركة القومية العربية [5].

وحريّ بنا، في هذا الصدد، الإشارة إلى مدى ولوع العرب بلغتهم وشدة تعلقهم بها، إذ يجدون فيها متعة تعبيرية في جمالها ويظهرون إعجابهم واعتزازهم بها . فتباهى وتعاظم شعراء العرب، في العصر الحديث، ببهاء اللغة العربية، فأنشدوا أروع القصائد في تمجيدها وبيان بلاغتها وروعتها.

ومن المناسب، أيضاً، في سياق التطرق لشغف العرب بلغتهم وافتخارهم بها، أن نقتبس المقولة الشهيرة التي وردت في استهلالية ألبرت حوراني لِكتابه الفكر العربي المعاصر << العرب أشد شعوب الأرض إحساساً بلغتهم

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط 1، (بيروت: دار صادر، 2000)، ص 442.

[2] حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي، ط 3، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986)، ص 35.

[3] أبو خلدون ساطع الحصري، مختارات ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية (بيروت: دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ت])، ص 21.

[4] ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية، ط 3، مزيدة ومنقحة، (بيروت: دار الثقافة، 1975)، ص 244.

[5] بيير رينوفان وجان باتيست دوروزيل، مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة فايز كم نقش، قدّم له نور الدين حاطوم، ط 3، (بيروت / باريس: منشورات بحر المتوسط / منشورات عويدات، 1989) ، ص 270 .

>>[6]. فالعرب يستمتعون بلغتهم ويتلذذون بآدابها ويستعذبون أنغام حروفها. فهي اللغة الوحيدة المنفردة بحرف ((الضاد)) الظاهر في فصاحة العرب والمستعصي نطقه عند غيرهم، وهي بذلك سميت لغة الضاد.

بيد أن هذه اللغة الجميلة، لغة العرب ولسان حالهم، لم تكن بمنأى عن الأخطار المحدقة بالأمة العربية، في عمومها، إذ طالها الإهمال والتخريب ومحاولات الطمس، وتراجعت وساءت حالتها وغلبت عليها مظاهر الوهن والتراجع، وهذا ما عبر عنه حماتها ومحبوها والمهتمون بها الذين يرون أنه من الضروري والواجب تدارك هذه الإشكالية والعمل على معالجتها بقدر من العقلانية والاعتبار[7]. ولعله من المفيد والملائم، في هذا الشأن، الاستشهاد بمقولة أشار كاتبها بأنها ترددت منذ أكثر من قرن، إذ يقول: << اللغة العربية ستكون من بين اللغات المهددة بالانقراض، وهي في خطر تعاني التكلس الشديد >>[8] .

إن ما يثار بشأن مسألة ضعف اللغة العربية وانحدار مكانتها الدولية كما يبرز في أدبياتها، ليس في موضع شك، فالعرب يدركون، تمام الإدراك، حال اللغة العربية، في ماضي تاريخها، وفي واقعها الحاضر.

عليه، فإننا نسعى في هذه الدراسة إلى ترسيخ فهمنا الموضوعي للعوامل والأسباب الكامنة وراء تراجع مستوى اللغة العربية. وذلك في محاولة لتحفيز العقول العربية وصناع القرار على البحث عن الحلول والسبل الناجعة والكفيلة بتخليص هذه اللغة العظيمة من حالة الوهن التي تعيشها والعمل على الارتقاء بها إلى المكانة المرموقة داخل الوطن العربي وخارجه. وهذا الأمر يدفعنا، من الناحية العلمية إلى إبراز إشكالية تستحق، بجدارة، البحث العلمي بكل مقوماته.

مشكلة الدراسة

رغم تعلق العرب بلغتهم التي تمثل الزاد الإستراتيجي للثقافة العربية، ورغم أن معظم الدول العربية تنص في دساتيرها على رسمية اللغة العربية، إلا أنها تشهد تراجعاً ملحوظاً. فما هي العوامل والأسباب الكامنة وراء هذا التراجع؟

---

[6] ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمهُ إلى العربية كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، [د.ت])، ص 11.

[7] انظر، على سبيل المثال، لا الحصر: سليمان إبراهيم العسكري، <<لغتنا العربية بين احتفاء العالم وإهمال أهلها،>> العربي، العدد 651، (فبراير 2013)، ص 8-13؛ عاصم المصري، << التصدي للمخاطر التي تهدد اللغة العربية،>>، آراء ومناقشات، المستقبل العربي، السنة 38 ، العدد 438 ، (أغسطس 2015) ، ص 121-128 .

[8] المصري، المصدر نفسه، ص 121.

فرضية الدراسة

لا شك في أن عوامل وأسباب تراجع اللغة العربية عديدة ومتداخلة، إلا أن العامل السياسي هو الأبرز فيها والأكثر تأثيراً.

هدف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى فهم دور العوامل السياسية في تراجع مكانة اللغة العربية، وذلك من خلال التركيز على مناقشة تأثير سياسات النفوذ الخارجي، ودور العوامل السياسية المحلية، سواء على مستوى السيادة الوطنية لكل دولة أو على مستوى التكامل العربي في إطاره الإقليمي.

أهمية الدراسة

تبرز أهمية هذه الدراسة في أنها تتناول مسألة تراجع اللغة العربية من منظور سياسي. فمعالجة موضوعات مثل تأثير النخب السياسية وسياسات النفوذ الخارجي على اللغة العربية قد لا تكون واضحة في الأدبيات المتعلقة بهذا الموضوع، نظراً لحساسيته. وهذا ما يمنحنا دافعاً قوياً لدراسة هذه المسألة بعمق.

منهجية الدراسة

لقد اعتمدت الدراسة على التوفيق أو التكامل بين منهجين أساسيين: المنهج التحليلي النقدي، والمنهج الوصفي التحليلي لملائمتهما لطبيعة الدراسة وهدفها. وعلى هذا الأساس، فإن السؤال الذي يستحق الطرح والمناقشة، هو: ما هي أسباب تدهور مستوى اللغة العربية التي تعتبر أكبر رصيد يملكه العرب وتمثل الزاد الاستراتيجي للثقافة العربية؟

لا شك في أن عوامل وأسباب ضعف وتراجع مكانة اللغة العربية عديدة ومتداخلة، إلا أن العامل الأبرز فيها هو العامل السياسي الذي يمكن النظر إليه على أنه المحفّز لبقية العوامل البيئية الأخرى، في عالمنا المعاصر. فهو يمثل قطب الرحى في حركية وتفاعل المجتمعات المعاصرة داخلياً وخارجياً ذلك أن << السياسة هي حقيقة من حقائق الوجود الإنساني لا يمكن تجنبها >>[9]. ولا يمكن تجنب النتائج المتولدة عنها[10].

[9] روبرت أ.دال ،التحليل السياسي الحديث ، ترجمة علاء أبوزيد ، مراجعة علي الدين هلال ، ط 5 ، (القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر [د.ت]) ، ص 7 .

[10] المصدر نفسه، ص 7

ومن منطلق هذه الملامسة الإجرائية يبدو لنا مفيداً وملائماً أن نركّز اهتمامنا على دور العوامل السياسية في ما يخص مكانة اللغة العربية. وحيث إن هذه العوامل تتعدد وتتنوع، فإنه من الأفضل الابتعاد عن العمومية لكي ينحصر الاهتمام والتركيز على أهم وأبرز العوامل ذات الفاعلية والتأثير الأعظم. عليه ارتأينا تناول هذه المسألة على النحو التالي:

أولاً: دور سياسات النفوذ الخارجي؛ ثانياً: دور العوامل السياسية الداخلية؛ ثالثاً: دور السياسة اللغوية واستخدام اللغة.

أولاً: دور سياسات النفوذ الخارجي

عندما نتحدث عن النفوذ الخارجي، فإن المقصود هنا هو مركز السلطان والقوة في البيئة الدولية، أي البيئة الخارجية التي يمكن التمييز بينهما وبين البيئة الداخلية على أساس معيار الحدود وفقاً لرأي وتصور الباحث الفرنسي مارسيل ميرل[11] (M.Merle)

بناء على ذلك؛ فإن العرب الذين يشكلون في مجملهم الأمة العربية هم << كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية (...) مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها وتبعيتها بصورة رسمية، ومهما كانت الديانة التي يدين بها والمذهب الذي ينتمي إليه. ومهما كان أصله ونسبه، وتاريخ حياة أسرته >>[12] .

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الفضاء الجغرافي الذي يقطنه العرب ويدينون له بالولاء كوطن لهم هو تلك المنطقة الجغرافية التي تتسع امتداداً من المحيط الأطلسي غرباً إلى الخليج العربي شرقاً، وهي منطقة ذات تاريخ وثقافة ولغة واحدة. وهي تشمل كل الكيانات والنظم العربية مهما كانت أحوالها وتسمياتها السياسية والدستورية. وبالتالي فإن قصدنا بمصطلح ((الوطن العربي)) في هذا الصدد هو المنطقة العربية أو ما يرادفها من مصطلحات تحمل الدلالة ذاتها، مثل؛ ((الدول العربية))، ((البلدان العربية))، ((العالم العربي)) و((النظام الإقليمي العربي)).

ومن خارج الوطن العربي، حيث يتربّص الأعداء، انهالت موجات الحكم الأجنبي والمد الاستعماري على المنطقة العربية وأثرت بشكل أو بآخر على المقدرات العربية وتطويق حركة الوحدة العربية من خلال تهميش مقومات الهوية القومية العربية بما في ذلك اللغة العربية التي تعد الركن الأقوى في هذه الهوية والرباط المتين

[11] نقلاً عن الحسان بوقنطار وعبدالوهاب معلمي، العلاقات الدولية، سلسلة تطبيقات، ط 1، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988)، ص13 .
[12] الحصري، مختارات ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، ص 190-191.

في تماسك الأمة العربية.

لقد خضعت المنطقة العربية للحكم العثماني منذ بدايات القرن السادس عشر عندما اقتحم الجنود الأتراك أرض الشام عام 1516 ومصر عام 1517 وامتدت السيطرة العثمانية لتشمل أجزاء أخرى من شرق وغرب الوطن العربي. وقد ركّزت السلطات العثمانية على فرض اللغة التركية، وإرساء سياسة التتريك، في إطار تكريس الطورانية التركية [13]، الأمر الذي أفضى إلى التأثير على اللغة العربية [14] .

وعلى الرغم من إن تأثير سياسة التتريك على اللغة العربية كان محدوداً في بعض الجوانب، إلا أن هناك بعض التأثيرات الرئيسية مثل؛ إدخال المصطلحات التركية والفارسية خصوصاً في المجالات الإدارية والعسكرية. بعض هذه الكلمات لا يزال يستخدم حتى اليوم في اللهجات المحلية. هذا إلى جانب التأثير على الكتابة والإملاء خصوصاً في الوثائق الرسمية التي كانت تكتب بألفاظ وأسماء تركية. ومع ذلك، فإن التأثير كان محدوداً بفضل مراكز ثقافية قوية مثل الأزهر في مصر والمدارس الشرعية في دمشق وبغداد التي حافظت على التراث العربي والإسلامي.

وإلى جانب السيطرة العثمانية تعرضت المنطقة العربية لمخاطر المد الاستعماري الأوروبي الحديث، إذ وقعت الجزائر تحت الاستعمار الفرنسي عام 1830، وأيضاً فرض الحماية الفرنسية على تونس بموجب معاهدة باردو علم 1881، وعلى مراكش بمعاهدة فاس عام 1912. وأقدمت إيطاليا على احتلال ليبيا عام 1911، وقبل ذلك احتلت بريطانيا وادي النيل _ السودان ومصر _ بعد هزيمتها للثورة العرابية عام 1882 [15]، فضلاً عن احتلالها لعدن منذ عام 1839 وهيمنتها على عدد من إمارات الخليج العربي؛ مسقط والبحرين والكويت وفق معاهدات أبرمت معها [16].

إن إشارتنا إلى هذه الأمثلة على التدخلات الخارجية التي استهدفت الوطن العربي واستولت على مختلف بلدانه في فترات متقاربة وظروف متنوعة تاريخياً لم يكن من باب السرد فحسب، بل من منطلق التحليل والاتعاظ

[13] انظر: منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، قدّم له ياسين الأيوبي، ([د. م]: دار اقرأ، [د.ت])، ص 32،33؛ علي المحجوبي [وآخرون]، كتاب التاريخ، ج 1، (تونس: وزارة التربية والعلوم، المركز القومي البيداغوجي، [د.ت])، ص 74 ؛ محمد كشاش ، << رؤية نهضوية لتطوير اللغة العربية : رشيد رضا نموذجاً ، >> المستقبل العربي ، السنة 18 ، العدد 196 ، (يونيو 1995)، ص113 .

[14] عطا محمد صالح زهرة، في الأمن القومي العربي، ط 1 (بنغازي: جامعة قاريونس، 1991)، ص 82؛ بكر مصباح تنيره، << حركة الوحدة العربية في مواجهة الاستراتيجيات الدولية المعاصرة،>> شؤون عربية، العدد 2، (أبريل 1981)، ص 121.

[15] تنيره، المصدر نفسه، ص 130.

[16] المحجوبي [وآخرون]، كتاب التاريخ، ص 74؛ سليمان موسى، الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة 1908-1924، ط 2 (بيروت: دار النهار للنشر، 1977) ، ص 19 .

في إطار البحث عن الحلول العقلانية والناجعة. فمن الناحية النظرية والعلمية ينبغي ألا نستهين بأهمية التاريخ والأكثر أهمية، أيضاً، هو كيف يمكن أن نستخلص منها الدروس والعبر ونستوحي الحلول والقرارات الرشيدة الكفيلة لمعالجة أزمات الحاضر والتهيؤ لبناء صرح المستقبل.

إن موجات التدخل الخارجي التي شهدتها المنطقة العربية، خلال القرنين الماضيين والتي حاولت جاهدة طمس معالم الهوية العربية وتذويب مقوماتها، يتعين علينا أن ننظر إليها برؤية ثاقبة وفق مقاربة تحليلية عميقة. فلا ريب أن المرحلة الاستعمارية التي شهدتها الأمة العربية تعكس، إلى حد كبير، واقعاً سياسياً ارتسمت أهدافه الاستراتيجية آنذاك، أي في فترة الاحتلال، بما فيها الحرص على استمرارية وديمومة هذه الأهداف حتى بعد انتهاء الاحتلال، أي في مراحل ما بعد الاستقلال.

إن سرد أحداث التاريخ ليس بالأمر الصعب ولكن الأصعب هو كيف نستطيع تشخيص الواقع والظروف التي أفرزت تلك الأحداث، ومن ثم التعامل معها بقصد تحليل مضامينها وفهم بواعثها ودلالاتها، وذلك لكي نكون على بيّنة منها، وبالتالي يتسنى إرساء دعائم الاستنهاض السياسي والثقافي.

ومن هذا المدخل نستطيع، من الناحية التحليلية، مناقشة أثر العامل السياسي الخارجي على المكانة الدولية للغة العربية بعد استقلال البلدان العربية. بيد أن علامة الاستفهام التي تبرز في هذا الخصوص، هي كيف يكون بمقدورنا مناقشة وفهم أثر العامل السياسي الخارجي على منزلة اللغة العربية محلياً ودولياً؟، وهنا بيت القصيد. والملحوظ على أهداف الدول الاستعمارية، وسياساتها إزاء اللغة العربية هو حالة الديمومة أو الاستمرارية (The continuity)، فهي لم تتغير، جوهرياً، بعد استقلال البلدان العربية عما كانت عليه في فترات الاحتلال الأجنبي التي شهدت محاولات جادة لإبعاد اللغة العربية وزعزعة مكانتها كلغة قومية للأمة العربية[17]. وفي هذا الصدد يشير عبدالله العروي إلى إن الاستعمار << (...) حاول جاداً أن يقصي اللسان العربي من حقل الحياة العامة باعتبار أنه وعاء الوجدان القومي>> [18].

إن الأداة الصلبة التي ظلت تكبح حركية العلاقات الدولية حتى عام 1945 كانت تتمثل في القوة العسكرية، ولكن الأمر تغير بعد ذلك العام الذي شهد تأسيس منظمة الأمم المتحدة التي ينص ميثاقها في جملة ما ينص عليه، في المادة الأولى، على التذرع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي لحل المنازعات

[17]عمار بوحوش، << لغتنا العربية جزء من هويتنا،>>، آراء ومناقشات، المستقبل العربي، السنة 4، العدد 35، (يناير 1982)، ص 125.
[18]عبدالله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط 2، (بيروت / الدار البيضاء: دار التنوير للطباعة والنشر/ المركز الثقافي العربي، 1984)، ص 223.

الدولية . ومن هذا المنطلق أخذت الدول كافة، الكبرى منها والصغرى لا تعبر عن نواياها ومقاصدها بأساليب قد تتعارض علانية مع قواعد القانون الدولي، وتتنافى مع مبادئ وقيم الأخلاقيات الدولية، وإنما تسعى إلى إظهار أهدافها في صيغ تكون مقبولة دوليا. بيد أن ذلك لا يحول، من الناحية التحليلية، دون التعرف إلى حقيقة وخفايا هذه الأهداف.

ولما كان الواقع الدولي، بطبيعته، يعكس البعد الصراعي على مراكز النفوذ بين الدول فإن مظاهر التنافس والتعاظم على كسب النفوذ، في البيئة الدولية، هي الغالبة في معترك السياسة الدولية حتى وان كانت بوسائل سلمية؛ مثل الوسائل الثقافية. وفي هذا الصدد يقول الباحث الشهير لويس دوللو (Louis Dollot): <<(...) ذلك لأن الأمر يتعلق بالتنافس، حتى في قلب منظمة الأونسكو والمنظمات الإقليمية حيث يجب ألاّ تخدعنا عبارة ((التعاون)) الرنانة، وسواء أتعلق الأمر بنشر اللغة والتظاهرات الأدبية أو الفنية، وإعطاء المنح أو توزيع المساعدة التقنية، فإن كل الدول تسعى إلى توطيد تغلغلها الثقافي، وإذا حصلت على منافع فإن هذا يكون عامة على حساب الآخرين (....)>>[19].

لم يكن مهندسو السياسة الاستعمارية وروادها، إذن يخفون اتّكالهم على نشر لغتهم في البلدان العربية وتعزيز مكانتها على حساب لغة الأمة العربية. وهذا نهج لم يتغير بعد استقلال هذه البلدان، فهو من أهم وأبرز ثوابت أهداف السياسات الاستعمارية في المنطقة العربية.

من الناحية الأخلاقية، يمكن النظر إلى أي لغة، في حد ذاتها، على إنها عنصر محايد، إلا إن سياسة توظيفها لإنجاز هدف ما تبقى هي الفيصل الحاسم لمعرفة حقيقة ونوايا هذه السياسة أو تلك. فقد يكون الهدف نزيهاً وسامياً وأخلاقياً مما يضفي عليه قيمة الفضيلة التي تجعله مشروعاً ومقبولاً. وفي هذه الحالة نكون في دائرة مفهوم التلاقح الحضاري والانفتاح الثقافي على الآخر. أما إذا كان الهدف هو الاجتياح والسطوة والهيمنة (hegemony) لغرض طمس هوية الآخر، فإننا نكون بصدد مفهوم الامبريالية الثقافية (Cultural imperialism) التي تعتبر << محاولة للغزو والسيطرة على عقول الناس كأداة لتغيير علاقات القوى بين دولتين>> [20]. ومن هذا المنطلق يمكن فهم مضامين سياسات النفوذ الثقافي الخارجي إزاء اللغة العربية.

---

[19] لويس دوللو، العلاقات الثقافية الدولية، ترجمة بهيج شعبان؛ مراجعة هنري زغيب، (بيروت: منشورات عويدات، 1974)، ص 54-55.

[20] جيمس دورتي وروبرت بالتسغراف، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبدالحي، (بيروت / الكويت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / مكتبة كاظمة للنشر والترجمة، 1985)، ص 72؛ وانظر، أيضاً: هانزجي مورجنتاو، الصراع بين الأمم: الصراع من أجل السلطان والسلام، تعريب وتعليق خيري حماد، 3 ج (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، 1965)، ج 1، ص 98-99.

إن القوى الاستعمارية التي مارست الهيمنة العسكرية والثقافية على المنطقة العربية خلال الحقبة الاستعمارية انتهجت سياسة الاستلاب الثقافي ومكافحة اللغة العربية بأساليب ووسائل عديدة تتكيف مع معطيات البيئة الدولية التي أفرزها النظام الدولي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وظهور منظمة الأمم المتحدة والتطورات التي أحدثتها المتغيرات الدولية في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي؛ كالعولمة والثورة الرقمية الهائلة. وهذا ما عبر عنه الكتّاب والأبحاث الغربيون ب ((القوة اللينة أو الناعمة)) (soft power) التي تعني القدرة على إنجاز الأهداف عن طريق جاذبية الثقافة[21].

من المستحسن أن نستفهم عن الأمور من خلال جواهرها، فنتساءل: كيف استطاعت الثقافة الإمبريالية أن تتغلغل في الثقافة العربية وتؤثر على اللغة العربية ؟

يمكن القول إن المخاطر التي تواجه اللغة العربية تبرز بوضوح تحت تأثير الهيمنة الفرنسية والأنجلو - أمريكية. فقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الثانية على نحو من الاستمرارية الملحوظة في أهدافها الخارجية ومدلول مصالحها الوطنية انطلاقاً من تصوراتها في الماضي والحاضر[22]. وكذا الأمر بالنسبة لبريطانيا التي خرجت منتصرة من هذه الحرب مما عزز ثقة وإيمان البريطانيين بمؤسساتهم ونظرتهم إلى أنفسهم كقوة عظمى في السياسة العالمية من ضمن القوى الثلاث الكبرى المسؤولة عن تجميع عناصر أو أجزاء النظام الدولي الجديد[23]. ولا يخفى علينا التطور الذي شهدته السياسة الخارجية الأمريكية غداة الحرب العالمية الثانية فقد أضحت الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بمكانة مرموقة فوصفت بأنها تمارس دور الشرطي العالمي[24].

وتعتبر فرنسا من أبرز الدول الغربية في تبني نشر اللغة الفرنسية وتعزيز نفوذها الثقافي في العالم عموماً والمنطقة العربية خصوصاً، وذلك من منطلق الاعتبارات والدوافع التالية:

[21] انظر: جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، نقله إلى العربية محمد توفيق البجيري؛ تقديم عبد العزيز عبد الرحمن الثنيان، (الرياض: العبيكان للنشر، 2007)، ص 12.

[22] انظر: Wolfram F.Hanrieder and Graeme P.Auton , The Foreign policies of west Germany , France and Britain , (New Jersey 07632 : prentice-Hall,Inc,englewood cliffs,1980) p.97

[23] المصدر نفسه، ص 177.

[24] هنري كيسنجر، الدبلوماسية من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة، ترجمة مالك فاضل البديري، ج 1، ط 1، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1995) ص 57.

1-التخوف من مخاطر تراجع اللغة الفرنسية أمام تنامي مد الأنجلو-أمريكية المتطلع إلى أن تصير اللغة الإنجليزية لغة التواصل العالمي الوحيدة[25].

2-تعْويل السياسة الفرنسية على دور اللغة الفرنسية في التنشئة العقلية في البلدان العربية وفي إفريقيا من خلال تسخير هذه اللغة لتقويض الذاكرة اللغوية الأصلية بقصد الدمج باسم الحداثة والرقي في الفضاء المجتمعي الفرنسي [26]. فهذه السياسة اللغوية تهدف إلى محاولة محو العربية نهائياً [27].

3-كسب مناطق نفوذ من خلال تكوين وتوسيع الفضاء الجغرافي للفرنكوفونية بحيث تكون اللغة الفرنسية بمثابة الأداة الرئيسية للفكر الثقافي الفرنسي والزاد الاستراتيجي المقوي لحركة السياسة الخارجية الفرنسية. وكل ذلك يتحقق عن طريق تسخير اللغة الفرنسية لتشكيل وتعزيز هوية فرنكوفونية (Francophone Identity) تضمن للغة الفرنسية مكاناً متميزاً في العالم عموماً والعالم العربي على نحو خاص. وبالتالي إتاحة الفرصة للغة الفرنسية في التوصل إلى المكانة العالمية التي طالما تطلعت إليها منذ عهد الثورة الفرنسية[28].

4-تكوين وتأطير نخب سياسية متشبعة بالثقافة الفرنسية وتدين بالولاء لفرنسا وتؤدي دور المحامي الدائم الذي لا يكلّ للدفاع عن فرنسا وثقافتها وسياستها الخارجية، والأكثر من ذلك أنها تتبوأ مراكز السيادة وصنع القرار في بلدانها، ومن ثم إبداء مساندتها وانحيازها لمواقف وأهداف السياسة الفرنسية إقليمياً وعالمياً .

وقد تبلورت هذه الدوافع والأهداف المرتبطة بها في سياسات ومشاريع أنجزتها السياسة الخارجية الفرنسية بوسائل وأساليب عديدة أهمها ما يلي:

1-الحركة الفرنكوفونية المتمثلة في الآليات والوسائل التي تستخدمها فرنسا في إطار المنظمة الدولية للناطقين باللغة الفرنسية (International organization of la Francophonie)، والتي توخّى منها، أبوها الروحي،

[25] بنسالم حميش، <<الفرنكفونية ... والفرنسية،>>، المستقبل العربي، السنة 23، العدد 255، عدد خاص، (مايو 2000)، ص 38-39.

[26] في هذا الشأن، انظر: المصدر نفسه، ص 35.

[27] زكريا أبو حمدية، << دور اللغة العربية في تكامل الوطن العربي ووحدته: هل اللهجات عامل معاكس للتكامل والوحدة ؟،>> في: غسان سلامة [وآخرون]، محررون، الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي، ج2، ط1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1989)، ص 842.

[28] انظر: آلان ديلير، << فرنكوفية مشتركة لآسيا القرن الحادي والعشرين،>>، لابل فرنسا، مجلة إعلامية تصدرها وزارة الخارجية الفرنسية، العدد 30 (يناير 1998)، ص 6-7.

أن تكون أداة لتنحية اللغة العربية[29].وقد برزت سياستها المعلنة في مسارها الرسمي مع انعقاد أول مؤتمر فرنكوفوني أو المجلس الأعلى للغة الفرنسية في عام 1986، ومن ثم صارت الإطار الحركي المعلن للسياسة الفرنكوفونية المعاصرة التي ارتسمت وتحددت معالمها وفق استراتيجية السياسة الخارجية الفرنسية.

2-أسلوب الإغراء والجذب عن طريق إعطاء المنح الدراسية وبناء مدارس البعثة الثقافية الفرنسية [30].

3- شبكة الإدارات والمؤسسات الثقافية في الخارج؛ ومن بينها المراكز الثقافية والمعاهد الفرنسية وفروعها وغيرها من المراكز التابعة لمنظمة أليانس فرانسيز (Alliance Francaise) الهادفة إلى ترويج الثقافة واللغة الفرنسية في جميع أنحاء العالم.

وإلى جانب الحصار الذي ضربته السياسة الثقافية الفرنسية، تواجه اللغة العربية، أيضاً، تغلغل الثقافة الأنجلو-أمريكية ذات التأثير الأكثر نفاذاً. ذلك أن اللغة الإنجليزية هي اللغة السائدة عالمياً وهي لغة العلم والمعرفة، لغة التقانة والرقمنة، في الوقت الراهن. كما أنها بهذه المكانة تعتبر من أهم وأبرز عوامل الجذب والاندفاع إلى أسواق العمل في الداخل والخارج. ذلك إن اكتساب اللغة الإنجليزية أضحى مطلباً ملحاً ومؤشراً على رأس مال معرفي وثقافي يمنح صاحبه قيمة مادية ومعنوية رفيعة اجتماعياً واقتصادياً ومعرفياً في ظل النظرة السائدة في عالم اليوم.

ومن منطلق هذه المكانة التي تحظى بها اللغة الإنجليزية أخذت سياسة الأنجلو-أمريكية تتغلغل بكل يسر وارتياح في البلدان العربية عبر عديد الأدوات والوسائل الثقافية لعل أهمها ما يلي:

1- المراكز الثقافية التي تؤدي دوراً مهماً في تعليم ونشر اللغة الإنجليزية؛ من ذلك النشاطات التي تقوم بها فروع كل من المركز الثقافي الأمريكي (American Cultural Center) والمجلس الثقافي البريطاني (British council) في الدول العربية من خلال إقامة أندية المحادثة باللغة الإنجليزية وانتقاء المستهدفين لبرامج الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

[29] تعود فكرة الفرنكوفونية إلى نهاية القرن التاسع عشر. ويعتبر الجغرافي الفرنسي أونسيم ريكلو (Onesime Reclus) هو أول من قدّم مفهومها. انظر في هذا الشأن: حميش، <<، الفرنكوفونية ...والفرنسية، >>، ص33؛ وأيضاً : عمر بوزيان ، <<الفرنكفونية : تعزيز للتعاون المغاربي الفرنسي أم تهديد له ، >> ، المجلة المغربية لقانون واقتصاد التنمية ، جامعة الحسن الثاني ، العدد 31 (1993) ، ص 7-8 .

[30] بوزيان، المصدر نفسه، ص 12-13.

2-تأسيس فروع للجامعات الأمريكية، في المنطقة العربية، على غرار الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والجامعة الأمريكية في بيروت، والجامعة الأمريكية في دبي ... وغيرها. وتلقى هذه الجامعات إقبالاً عليها بسبب إعطاء الأولوية لخريجيها في التوظيف بالقطاعين العمومي والخاص.

3- أسلوب إعطاء المنح الدراسية؛ كبرنَامج فولبرايت، وبرنامج هيوبرت وغيرهما، والتي تقتضي، بالضرورة، على المترشح لها أن يكون متحصلاً على شهادة إجادة اللغة الإنجليزية .

وقد تمت ممارسة هذه السياسات ووسائل تنفيذها في إطار المقاربة التي ترتكز في فلسفتها على أساس تحقيق الأهداف السياسية بالوسائل الثقافية أو ما يفضّل البحاث الأمريكيون تسميته بالقوة الناعمة وبحرب الأفكار (A war of ideas) التي تعتمد بشكل رئيسي على تكوين واستقطاب النخب (elites) في الجمهور المستهدف والتي لا يتحدد مفهومها، في هذا السياق، بالحالة الاجتماعية أو الاقتصادية بقدر ما يقصد بها القدرات العقلية أو الفكرية (Intellectual Capabilities)[31]، وذلك بمحاولة توظيف الأفكار في التأثير على الناس، أي بمعنى السيطرة على القدرات العقلية، فحَرب الأفكار مبنية على فكرة مفادها ((أن النصر النهائي لا يحدث على أرض المعركة وإنما في العقل البشري))[32].

إن الهدف من تأطير واستقطاب مثل هذه النخب هو أن تكون مؤهلة لتولي مواقع السيادة ومراكز صنع القرار. وبالتالي ضمان ديمومة الفائدة الأمريكية في المنطقة العربية، وتأمين تدفق ثقافة الأنجلو-أمريكية بما يضمن تأثيراً مستمراً وفعالاً على اتجاهات الرأي العام العربي، وفتح أبواب القبول العربي أمام هذه الثقافة. ومن ثم تأمين مستقبل مصالح أمريكا وحلفائها في المنطقة، وكذا ديمومة حصادها النفعي من الموارد العربية [33].

إن تعويل السياسة الأمريكية على المقاربة العقلية لغرض الهيمنة على العرب من خلال تسخير اللغة الإنجليزية في تكوين القدرات الفكرية النخبوية المتشبعة بالثقافة الغربية والتي تكن الولاء للسياسة الأمريكية، هو أمر لا يختلف عن النهج الفرنسي في المنطقة العربية الذي يرتكز أساساً على كسب العقول . وهذا ما قاله أبرز أقطاب وحماة الثقافة الفرنسية أ.ل شاتليه (A.Le Chatelier) في عام 1910 : << ينبغي لفرنسا أن يكون

[31] Robert R.Reilly,<<Conducting a War of Ideas with public Diplomacy : An insider's view , >> in : J.Michael Waller ,ed., Strategic Influence : public Diplomacy ,counterpropaganda ,and political warfare (Washington , DC : The institute of world politics press, 2008),p.121.

[32] المصدر نفسه، ص 120.

[33] انظر: زايد عبيد الله مصباح، << السياسة الثقافية الأمريكية تجاه الوطن العربي: دبلوماسية ثقافية أم إمبريالية ثقافية؟ >>، المستقبل العربي، السنة 37، العدد 427 (سبتمبر 2014)، ص108.

عملها في الشرق مبنياً قبل كل شئ على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته (....)>>[34].

يمكن القول إن سياسات النفوذ الخارجي الوافدة إلى الوطن العربي تشكل أحد أبرز العوامل السياسية التي تسهم بشكل كبير في تراجع مكانة اللغة العربية محلياً ودولياً.

ثانياً: دور العوامل السياسية الداخلية

المقصود بالعوامل السياسية الداخلية هو كافة المعطيات السياسية التي تخص الأمة العربية ذاتياً، سواء كانت على مستوى السيادة الوطنية، أو على مستوى الأمة العربية ككل في إطارها الإقليمي. ومن أبرز وأهم هذه العوامل على المستوى الوطني؛ مكونات الغطاء السياسي بما فيها طبيعة نظام الحكم، وبيئة القرار ووحدة اتخاذ القرار وما يحيط بها من ظروف موضوعية ومزاجية. وعلى المستوى التكاملي، حيث يتوقف الأمر على مدى فعالية ونجاعة دبلوماسية التكامل العربي، فإن العامل المؤثر يكمن في الشكل أو الإطار الذي يكتنف النظام العربي الإقليمي، في كونه يتسم بالمتانة والتماسك أم تغلب عليه حالة التهلهل والتفكك.

على المستوى الوطني تعاني اللغة العربية حالة من الوهن وتواجه جملة من التحديات بين نص رسميتها في الدستور وتهميشها في واقع الممارسة على صعيد التعليم وعلى مستوى التعامل اليومي في العمل الإداري الحكومي. فعلى الرغم من أن معظم الأقطار العربية تنص في دساتيرها على رسمية اللغة العربية [35]، فإن الإرادة السياسية الجادة لتفعيل هذه النصوص الدستورية، ما زالت غائبة وتواجه قيوداً خارجية وداخلية، حيث تتقاطع مصالح النخبة المتسلطة داخلياً مع مصالح القوى المسيطرة خارجياً [36] والتي تعمل جاهدةً لفرض هيمنتها الثقافية على الأمة العربية منذ القرن التاسع عشر وخاصة مع مطلع القرن الماضي [37].

إن الفجوة بين النصوص الدستورية والواقع العملي، في ما يتعلق بمكانة اللغة العربية في البلدان العربية، ترجع في الواقع، إلى أن معظم المبادرات والقرارات في النظم العربية، وبخاصة القرارات الشعبية، تُصدر بهدف

[34] <<مقدمة المسيو شاتليه،>> في: أ.ل شاتليه، الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى اللغة العربية مُساعد اليافي ومُحبّ الدين الخطيب، ط 2، (جدة: الدار السعودية للنشر، 1387هـ)، ص 13.

[35] انظر: رياض زكي قاسم، <<اللغة العربية: من التراجع إلى التمكين،>>، المستقبل العربي، السنة 36، العدد 413 (يوليو 2013)، ص 88؛ وأيضاً: أبو حمدية، << دور اللغة العربية في تكامل الوطن العربي ووحدته: هل اللهجات عامل معاكس للتكامل والوحدة ؟، >>، ص 832.

[36] انظر: بوحوش، <<لغتنا العربية جزء من هويتنا، >>، ص 122.

[37] انظر: مسعود ضاهر، مجابهة الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني للمشرق العربي: دراسة في الثقافة المقاومة، سلسلة مواجهة الغزو الثقافي 1 ط1 (الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، 1989)، ص 26-27.

إرضاء الرأي العام وتسكينه بشكل مؤقت . ومع مرور الوقت، تتباعد الفجوة بين تنفيذ هذه القرارات والواقع الفعلي، وذلك بسبب أن الحكام، بفضل صلاحياتهم وقوة تأثيرهم التي تتجاوز الأطر الدستورية والقانونية، يحيطون أنفسهم بنخبة من الإداريين التنفيذيين. هؤلاء الإداريون يتولون ترجمة إرادة الحاكم وتنفيذها،[38] مما يؤدي إلى تنفيذ قرارات لا تتوافق دائماً مع الواقع العملي.

بعض من النخب العربية المتمركزة في مواقع السيادة والنفوذ لا تتردد في اتخاذ قرارات قد تؤثر سلباً على السياسات التعليمية وتخدم السياسات الثقافية الوافدة إلى الوطن العربي.

وفي هذا السياق لا نستغرب إذا علمنا أن الرئيس التونسي الأسبق الحبيب بورقيبة اتهم عملية التعريب بأنها هي السبب في تدهور مستوى التعليم في تونس. ومنه جاء قراره بتدريس الفرنسية في السنة الثانية ابتدائي بدلاً من السنة الرابعة[39]. لا شك في أن ذلك جاء على حساب مكانة اللغة العربية في التحصيل العلمي، حيث أشارت الإحصائيات، في تلك الفترة، إلى إن 72% من التلاميذ في تونس يعانون صعوبة في التحدث باللغة العربية الفصحى، وأن 60% يجدون صعوبة في الكتابة باللغة العربية[40].

ولا يقتصر هذا الأمر على تونس فحسب، بل يشمل دولاً عربية عديدة. فهناك من يرى إن قضية التعريب الكلي لجميع مستويات التعليم هي مسألة سياسية أكثر من كونها ثقافية أو لغوية، ولذلك ظلت أمراً بعيداً[41]. فيقول: فعلى الرغم من تأكيد مجموعة بلدان المغرب العربي نهج سياسة تعريبية، فإن الواقع يبين استمرار العمل بازدواجية لغة التدريس [42].

ولنفترض، جدلاً، جديّة المساعي والجهود المبذولة على المستوى الوطني، فإنها، سواء كانت في هيئة قرارات داخلية أو اتفاقيات بينية مع قوى خارجية، ستبقى منقوصة المقومات لأنها تتم في إطار السياسة الانفرادية التي يتعسر عليها أن تحقق نجاحاً في القضايا القومية التي تهم الأمة العربية في عمومها ما لم تتم معالجتها على

[38] انظر: مصطفى التير، << الودّ المفقود بين الباحث وصانع القرار: ملاحظات حول علاقة الموظف بالسلطة،>> ورقة قدمت إلى: المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، الندوة الفكرية، جامعة صنعاء، صنعاء، ط1 (بيروت: معهد الإنماء العربي ،1988)، ص 298.

[39] محمود الذوادي، << تأملات في العهد البورقيبي في ضوء رسالة مفتوحة إلى الحبيب بورقيبة،>>، الفكر العربي، السنة 9، العدد 53 (أكتوبر 1988)، ص 239.

[40] عبدالعزيز عاشوري، << محاولة لتقويم تجربة التعليم في تونس،>> المستقبل العربي، السنة 5، العدد 39 (مايو 1982)، ص 87.

[41] انظر: عكاشة بن المصطفى، <<تأثير اللغة الفرنسية في المستوى القيمي والاجتماعي والتعليمي في المغرب،>>، المستقبل العربي، السنة 35، العدد 402 (أغسطس 2012)، ص 136.

[42] المصدر نفسه، ص 136.

المستوى القومي، في إطار كيان تكاملي، يستمد فاعليته ونجاعته من قوة وصلابة ميثاقه . وهذا ما يقودنا إلى مناقشة قضية اللغة العربية على مستوى النظام الإقليمي العربي في إطاره التكاملي منذ إنشاء جامعة الدول العربية عام 1945 كمنظمة إقليمية عربية.

كان من المأمول، عربياً، أن تكون جامعة الدول العربية بمثابة البيت العربي المشترك عن طريق تدبير وتنسيق وتوثيق الصلات بين الدول العربية تحقيقاً للتعاون بينها، والسعي الحريص على حماية وضمان مستقبل الأمة العربية وتحقيق أمانيها وآمالها وكل ما فيه خير ومنفعة على كافة الجوانب؛ ومنها الجانب الثقافي بما فيه المسألة اللغوية، وهو الأمر الذي يترك أثره على التوجه السياسي لشدة اتصاله بالسياسة ولأنه يترك أثرا في الجيل المعاصر والأجيال التالية [43].

لم يكن الأمل المعقود على دور الجامعة العربية في إحداث الانبعاث الثقافي، نابعاً من فراغ، بل كان مبنياً على مجموعة من المعطيات والدوافع التي ظهرت مع بدايات عهد هذه الجامعة، ومن بينها ما يلي:

1-إن الشأن الثقافي يعد من ضمن الشؤون التي نص ميثاق الجامعة على تحقيق التعاون فيها وفقاً لنص المادة الثانية منه[44].

2-إن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التي هي إحدى المنظمات العربية المتخصصة، حددت أهدافها، وفقاً لمضمون المادة الأولى من دستورها، على << (...) تمكين الوحدة الفكرية بين أجزاء الوطن العربي عن طريق التربية والثقافة والعلوم ورفع المستوى الثقافي في الوطن العربي حتى يقوم بواجبه في متابعة الحضارة العالمية والمشاركة الإيجابية فيها>> [45].

3-ظهور منظور قومي يرى أن قضية اللسان العربي هي انعكاس لمشكلة الوجود العربي ولا يمكن أن تحل إلا في نطاق قرار وحدوي [46]، وإن اللسان العربي هو آخر سلاح بيد الوحدويين، إذ سقط تلاشت معه آمال الوحدة [47].

[43] محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، ط 1 (الكويت / الدوحة: مكتبة المنار الإسلامية / مكتبة الثقافة، 1967)، ص 160.
[44] محمد عزيز شكري، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع، ط 1 (الكويت: منشورات دار ذات السلاسل، 1975)، ص 19.
[45] المصدر نفسه، ص 106.
[46] عبدالله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ص 209.
[47] المصدر نفسه، ص 227.

4-ظهور نوع من التفاؤل والتزايد في الأمل بعد تأسيس معهد البحوث والدراسات العربية في عام 1952 وتولي المفكر القومي ساطع الحصري رئاسته في عام 1953، والذي يرى أن اللغة تكوّن روح الأمة وحياتها [48]. فهناك من يشير إلى أن كتاباته قد أسهمت <<في تلوين القومية المصرية بلونها العربي>> [49].

في ضوء هذه المعطيات، يجدر بنا أن نتساءل: هل حظيت مسألة اللغة العربية باهتمام كافٍ من مجلس جامعة الدول العربية، وهل نالت نصيباً مرضياً في القرارات الصادرة عنه، حتى ولو بالحد الأدنى؟

إن الإجابة عن هذا السؤال قد تكون مستعصية بدون الأخذ في الاعتبار محورية العامل السياسي.

النقطة المهمة التي يجب التنبه إليها هي أن مركز القرار في جامعة الدول العربية المتمثل في مجلس الجامعة، كان ولا يزال متأثراً بعدة عوامل سياسية أبرزها؛ قيود البيئة الخارجية (الضغوط الدولية)، وتأثير ومصلحية النظم العربية الحاكمة [50]. إضافة إلى مثالب ميثاق الجامعة فيما يتعلق بإلزامية قرارات مجلس الجامعة. حيث تنص المادة السابعة من الميثاق على أن << ما يقرر المجلس بالإجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله. وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية >> [51].

في نظرتنا إلى جامعة الدول العربية نستشهد بما أشار إليه أحد كتّاب القومية العربية قائلاً: << الجامعة العربية نشأ لها وضع مزدوج نتيجة إنها بِميثاقها جاءت استجابة لما أراده المؤسسون منها كجهاز يرشح التجزئة والسيادة، بينما تمناها القوميون تجسيداً وتحقيقاً لإرادة الوحدة العربية. وقد سيطر هذا الازدواج على حركة الجامعة ووضع محددات سلوكها وتصرفاتها >>[52]. لهذا السبب، ظلت جامعة الدول العربية، إلى حد كبير، غير قادرة على تنفيذ المشاريع القومية التي تخدم مصالح الأمة العربية وتضمن مستقبلها الحضاري. فالواقع يشير إلى أن الجامعة لم تحقق مستوى مرضياً من الوحدة العربية، وبقيت بعيدةٌ عن التعامل الفعال مع القضايا العربية لأسباب سياسية. [53]

[48] الحصري، مختارات ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، ص 21.

[49] حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ص 377.

[50] انظر جميل مطر، <<التجارب الوحدوية الوظيفية: الجامعة العربية،>> ورقة قدمت إلى: القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو 1984)، ص 495.

[51] شكري، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع، ص 182.

[52] مطر، << التجارب الوحدوية الوظيفية: الجامعة العربية،>>، ص 486.

[53] شكري، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع، ص 10-11.

International Journal of Educational Sciences and Arts (IJESA)
Vol. (3), No. (9)
IJESA
September 2024
المجلة الدولية للعلوم التربوية والآداب
الإصدار (3)، العدد (9)

خلاصة القول هو إن مسألة اللغة العربية تُعد من القضايا الجوهرية التي تستحق معالجة قومية جادة، في إطار جامعة الدول العربية التي تمثل أعلى هيئة دبلوماسية في النظام الإقليمي العربي، وذلك باعتبار أن اللغة العربية تعتبر عنصراً أساسياً في الثقافة العربية، بل هي جوهرها وخزانها الاستراتيجي. فالمجال الثقافي، هو الأساس والمحور قبل كل شئ وبعده، وهو المجال الذي لا تزال الأمة العربية تملكه، ويجب عليها ألّا تفقده [54].

هناك العديد من المقترحات والمشاريع، التي قدمها حماة اللغة العربية في سياق كتاباتهم القومية، والهادفة إلى تعزيز مكانة اللغة العربية، والتي ينبغي دراستها ومناقشتها بعقلانية على المستوى القومي في إطار جامعة الدول العربية. على سبيل المثال: إيجاد قانون ينظم استخدام اللغة العربية في مجالات التواصل والعمل والتعليم والإعلام المرئي،[55] ومشروع تمويل دراسة اللغة العربية في الدول الأجنبية عن طريق إنشاء مراكز ومعاهد ثقافية خارج الوطن العربي لنشر لغة العرب وثقافتهم في العالم [56] .

إن بلورة وإنجاز هذين المشروعين وغيرهما يجب أن تتم وفق رؤية قومية في دائرة التكامل العربي . ذلك لأن مسائل حماية اللغة العربية تُعد من الشؤون القومية التي تهم كل العرب. وبالتالي، يجب تشخيصها ومعالجتها كجزء لا يتجزأ من الأمن القومي العربي لأنها تشكل ركنه الثقافي المتمثل في الأمن الثقافي العربي .

وعلى الرغم من أن قوانين حماية اللغة العربية باتت تجد طريقها في المنظومة التشريعية لعدد من البلدان العربية وهو تطور إيجابي ملحوظ، ولكن يجب أن يكون هذا الجهد مدعوماً ومصحوباً بجملة من القواعد التنظيمية اللازمة لترسيخه على المستوى العملي، لضمان توسيع نطاقه وتحقيق ظاهرة الانتشار أو التعميم (Spillover) على المستوى العربي . وهذا أمر لن يتحقق إلا بتضافر جهود الدول العربية في إطار جامعة الدول العربية من خلال اتباع مسار دبلوماسية الاتفاق الجماعي كبديل عن دبلوماسية الاتفاقيات الانفرادية .

ثالثاً: دور السياسة اللغوية وضبط استخدام اللغة

عند الحديث عن دور السياسة اللغوية في التأثير على مكانة اللغة العربية، فإن الأمر يتعلق بخصوصية المنظومة التشريعية والقانونية في كل دولة عربية فيما يخص الشأن اللغوي. تعكس هذه المنظومة إلى حد كبير درجة التحكم في استخدام اللغة الذي يعد بمثابة الحد الفاصل بين سياسة الانفتاح وسياسة التماهي

[54] عبد المنعم سعيد، <<دروس التجارب الوحدوية في العالم،>> المستقبل العربي، السنة 12، العدد 127، (سبتمبر 1989)، ص 114.
[55] قاسم، <<اللغة العربية: من التراجع إلى التمكين، >>، ص 89.
[56] انظر: العسكري، << لغتنا العربية بين احتفاء العالم وإهمال أهلها،>>، ص 11-12.

والقبول بالهيمنة الثقافية التي تهدف إلى تذويب اللغة الوطنية في اللغات الأجنبية. ومن ثم التعرف على حقيقة أيّة سياسة لغوية في أي بلد عربي، خاصة ما يرتبط بمسألة الثنائية اللغوية والتي نقصد بها، هنا، استعمال الدولة للغة أجنبية أو أكثر، إلى جانب لغتها الأولى (اللغة الأم) سواء على مستوى التدريس في العملية التعليمية والمعرفية أو على المستوى المؤسساتي (اللغة الإدارية). في هذا الخصوص لابد من لفت الانتباه إلى نقطة مهمة وهي ضرورة التمييز بين لغة التدريس وتدريس اللغات ذلك إن التدريس بلغة أجنبية يدخل في دائرة مفهوم الثنائية اللغوية بينما يعتبر تدريس اللغات الأجنبية نوعاً من أنواع التحصيل العلمي والاكتساب المعرفي.

لا شك في أن تعلم اللغات الأجنبية سواء في إطار منهجي أو بصورة فردية وبدافع الطواعية هو أمر مقبول ومرغوب فيه ولا يرفضه العقل دائماً . خاصة في العصر الحالي المتسم بالتواصل والتداخل والعولمة، حيث يعتبر تعلم اللغات الأجنبية ومعرفتها خطوة عقلانية عندما يكون ذلك في إطار المنفعة المتبادلة[57].

ولقد أفرز لنا الفكر العربي والإسلامي ما يؤيد الانفتاح على تعلم اللغات الأجنبية، من ذلك على سبيل المثال؛ نادى الإمام محمد عبده بضرورة تعلم لغة من لغات العالم الأوروبية، حيث قال: << إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من اللغات الأوروبية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم >>[58].

إن الخطر على مستقبل اللغة العربية لا يكمن في تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها، بل في الاعتماد على هذه اللغات كوسيلة للتدريس في مجال التعليم جزئياً أو كلياً. إذ إن التدريس باللغات الأجنبية في البلدان العربية يؤثر سلباً على مكانة اللغة العربية ومستقبلها، حيث يتم على حساب اللغة العربية، مما يؤدي إلى تهميشها واندماجها في الثقافات الأجنبية الوافدة، وهذا يهدد بفقدان الهوية الثقافية وأصالتها، ومن ثم يفقد الانفتاح الثقافي معناه[59].

إن استئثار اللغات الأجنبية بالنصيب الأكبر في عملية التدريس في بعض البلدان العربية يؤدي إلى نتائج سلبية على مسار التنشئة، سواء على المستوى اللغوي (التنشئة اللغوية) أو على المستوى السياسي (التنشئة السياسية) . وهذا من شأنه أن يفتح المجال أمام سياسة التوسع والهيمنة الثقافية القادمة من الخارج .

---

[57] عبد الملك مرتاض، << موقع اللغة والثقافة العربية في مواجهة الفرنكوفونية،>>، العربي، العدد 515، (أكتوبر 2001)، ص 69.

[58] الإمام الشيخ محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جمعها وحققها وقدّم لها محمد عمارة، ج 3، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972)، ص 174، نقلته عن: حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، ط 2، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1992)، ص 539.

[59] المصطفى، <<تأثير اللغة الفرنسية في المستوى القيمي والاجتماعي والتعليمي في المغرب،>>، ص 153.

إن الانفتاح على اللغات الأجنبية ينبغي ألّا يكون على حساب لغة العرب وثقافتهم، ذلك إن الانفتاح الثقافي يتطلب بالضرورة ظروف الموضوعية والاتزان بين أطراف التفاعل بحيث يكون في إطار معرفي قوامه العلاقة المتكافئة بين هذه الأطراف والتي تقتضي حيادية اللغة وعدم المساس بالهوية الوطنية وكل مقومات الشخصية القومية وتراثها الحضاري . وبالتالي، فإن الانفتاح على اللغات الأجنبية يتطلب انتهاج سياسة لغوية رشيدة، ذلك لأن خطر التفاعل مع أي لغة أجنبية يكمن في مقومات السياسة اللغوية في الداخل، من حيث الضعف أو القوة أمام خطر اللغة الأجنبية [60].

بناء على ذلك، فإن السياسات اللغوية في الأقطار العربية يجب أن تكون قوية ومحكومة بمنظومة من التشريعات والقوانين الكفيلة بضبط الاستخدام اللغوي على النحو الذي يضمن تأمين وحصانة اللغة العربية في إطار الانفتاح على اللغات الأجنبية. وهذا، كما ذكرنا، يتوقف، إلى حد كبير، على النخب العربية المتحكمة في مراكز صنع القرار في البلدان العربية.

النتائج المستخلصة والتوصيات

من خلال المعالجة التحليلية التي قمنا بها في هذه الدراسة، يمكن استخلاص مجموعة من النتائج والتوصيات لعل من أهمها وأبرزها ما يلي:

1. رغم تعدد وتنوع عوامل وأسباب تراجع مكانة اللغة العربية، فإن العامل الأبرز فيها هو العامل السياسي الذي يُعد الأكثر تحفيزاً لبقية العوامل الأخرى.
2. إن أنظمة الحكم العربية، في عمومها، يؤخذ عليها غياب الإرادة السياسية الجادة فيما يتعلق بالعمل على الاستنهاض الثقافي واللغوي.
3. عدم تماسك ومتانة النظام الإقليمي العربي الذي تغلب على سياسات أطرافه دبلوماسية الاتفاقيات الانفرادية بدلاً من الاتفاقيات التكاملية فيما يخص مسألة الاستنهاض الثقافي اللغوي.
4. إن الخطر على مستقبل اللغة العربية لا يكمن في تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها، بل في الاعتماد على هذه اللغات كوسيلة للتدريس في مجال التعليم جزئياً أو كلياً.
5. إن الانفتاح الثقافي ينبغي أن يكون في إطار حيادية اللغة وعدم المساس بالهوية، وكل مقومات

[60] المصطفى، <<تأثير اللغة الفرنسية في المستوى القيمي والاجتماعي والتعليمي في المغرب،>>، ص 153.

الشخصية القومية وتراثها الحضاري.

6. إن السياسات اللغوية في البلدان العربية يجب أن تكون قوية ومحكومة بمنظومة من التشريعات والقوانين الكفيلة بضبط الاستخدام اللغوي.

قائمة المراجع المنشورة باللغة العربية

1. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، ط 1، (بيروت: دار صادر، 2000)، ص 442.
2. أبو حمدية، زكريا، << دور اللغة العربية في تكامل الوطن العربي ووحدته: هل اللهجات عامل معاكس للتكامل والوحدة ؟،>> في: غسان سلامة [وآخرون]، محررون، الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي، ج2، ط1 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1989)، ص 842.
3. بركات، حليم، المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي، ط 3، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1986)، ص 35.
4. بن المصطفى، عكاشة، <<تأثير اللغة الفرنسية في المستوى القيمي والاجتماعي والتعليمي في المغرب،>>، المستقبل العربي، السنة 35، العدد 402 (أغسطس 2012)، ص 136.
5. بوحوش، عمار، << لغتنا العربية جزء من هويتنا،>>، آراء ومناقشات، المستقبل العربي، السنة 4، العدد 35، (يناير 1982)، ص 125.
6. بوزيان، عمر، <<الفرنكفونية: تعزيز للتعاون المغاربي الفرنسي أم تهديد له،>>، المجلة المغربية لقانون واقتصاد التنمية، جامعة الحسن الثاني، العدد 31 (1993)، ص 7-8.
7. بوقنطار، الحسان وعبد الوهاب معلمي، العلاقات الدولية، سلسلة تطبيقات، ط 1، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988)، ص13.
8. تنيره، بكر مصباح، << حركة الوحدة العربية في مواجهة الاستراتيجيات الدولية المعاصرة،>> شؤون عربية، العدد 2، (أبريل 1981)، ص 121.
9. التير، مصطفى، << الودّ المفقود بين الباحث وصانع القرار: ملاحظات حول علاقة الموظف بالسلطة،>> ورقة قدمت إلى: المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، الندوة الفكرية، جامعة صنعاء، صنعاء، ط1 (بيروت: معهد الإنماء العربي ،1988)، ص298.
10. حسين، محمد محمد، حصوننا مهددة من داخلها، ط 1 (الكويت / الدوحة: مكتبة المنار الإسلامية / مكتبة الثقافة، 1967)، ص 160.

11.الحصري، أبو خلدون ساطع، مختارات ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية (بيروت: دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ت])، ص 21.
12.حميش، بنسالم، <<الفرنكفونية ... والفرنسية،>>، المستقبل العربي، السنة 23، العدد 255، عدد خاص، (مايو 2000)، ص 38-39.
13.حوراني، ألبرت، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمةُ إلى العربية كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، [د.ت])، ص 11.
14.دال، روبرت أ.، التحليل السياسي الحديث، ترجمة علاء أبوزيد، مراجعة علي الدين هلال، ط 5، (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر [د.ت])، ص 7.
15.دورتي، جيمس وروبرت بالتسغراف، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبدالحي، (بيروت / الكويت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / مكتبة كاظمة للنشر والترجمة، 1985) ، ص 72 .
16.دوللو، لويس، العلاقات الثقافية الدولية، ترجمة بهيج شعبان؛ مراجعة هنري زغيب، (بيروت: منشورات عويدات، 1974)، ص 54-55.
17.ديلير، آلان، << فرنكوفية مشتركة لآسيا القرن الحادي والعشرين،>>، لابل فرنسا، مجلة إعلامية تصدرها وزارة الخارجية الفرنسية، العدد 30 (يناير 1998)، ص 6-7.
18.الذوادي، محمود، << تأملات في العهد البورقيبي في ضوء رسالة مفتوحة إلى الحبيب بورقيبة،>>، الفكر العربي، السنة 9، العدد 53 (أكتوبر 1988)، ص 239.
19.رينوفان، بيير وجان باتيست دوروزيل، مدخل إلى تاريخ العلاقات الدولية، ترجمة فايز كم نقش، قدّم له نور الدين حاجطوم، ط 3، (بيروت / باريس: منشورات بحر المتوسط / منشورات عويدات، 1989)، ص 270.
20.زهرة، عطا محمد صالح، في الأمن القومي العربي، ط 1 (بنغازي: جامعة قاريونس، 1991)، ص 82.
21.سعيد،عبد المنعم، <<دروس التجارب الوحدوية في العالم ،>> المستقبل العربي ، السنة 12 ، العدد 127 ،(سبتمبر 1989) ، ص 114 .
22.شاتليه، أ.ل، الغارة على العالم الإسلامي، لخصها ونقلها إلى اللغة العربية مُساعد اليافي ومُحبّ الدين الخطيب، ط 2، (جدة: الدار السعودية للنشر، 1387هـ)، ص 13.

23.شكري، محمد عزيز، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع، ط 1 (الكويت: منشورات دار ذات السلاسل، 1975)، ص 19.
24.ضاهر، مسعود، مجابهة الغزو الثقافي الإمبريالي الصهيوني للمشرق العربي: دراسة في الثقافة المقاومة، سلسلة مواجهة الغزو الثقافي 1 ط1 (الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، 1989)، ص 26-27.
25.عاشوري، عبدالعزيز، << محاولة لتقويم تجربة التعليم في تونس،>> المستقبل العربي، السنة 5، العدد 39 (مايو 1982)، ص 87.
26.26-العروي، عبدالله، ثقافتنا في ضوء التاريخ، ط 2، (بيروت / الدار البيضاء: دار التنوير للطباعة والنشر/ المركز الثقافي العربي، 1984)، ص 223.
27.العسكري، سليمان إبراهيم، <<لغتنا العربية بين احتفاء العالم وإهمال أهلها،>> العربي، العدد 651، (فبراير 2013)، ص 8-13.
28.قاسم، رياض زكي، <<اللغة العربية: من التراجع إلى التمكين،>>، المستقبل العربي، السنة 36، العدد 413 (يوليو 2013)، ص 88.
29.كشاش، محمد، << رؤية نهضوية لتطوير اللغة العربية: رشيد رضا نموذجاً، >> المستقبل العربي، السنة 18، العدد 196، (يونيو 1995)، ص113.
30.كيسنجر، هنري، الدبلوماسية من القرن السابع عشر حتى بداية الحرب الباردة، ترجمة مالك فاضل البديري، ج 1، ط 1، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1995) ص 57.
31.مجاهد، حورية توفيق، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، ط 2، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1992)، ص 539.
32.المحجوبي، علي [وآخرون]، كتاب التاريخ، ج 1، (تونس: وزارة التربية والعلوم، المركز القومي البيداغوجي، [د.ت])، ص 74.
33.محمد عبده، الإمام الشيخ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جمعها وحققها وقدّم لها محمد عمارة، ج 3، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1972)، ص 174.
34.مرتاض، عبد الملك، << موقع اللغة والثقافة العربية في مواجهة الفرنكوفونية،>>، العربي، العدد 515، (أكتوبر 2001)، ص 69.

35.مصباح، زايد عبيد الله، << السياسة الثقافية الأمريكية تجاه الوطن العربي: دبلوماسية ثقافية أم إمبريالية ثقافية؟ ،>>، المستقبل العربي، السنة 37، العدد 427 (سبتمبر 2014)، ص108.

36.المصري، عاصم، << التصدي للمخاطر التي تهدد اللغة العربية،>>، آراء ومناقشات، المستقبل العربي، السنة 38، العدد 438، (أغسطس 2015)، ص 121-128.

37.مطر، جميل، <<التجارب الوحدوية الوظيفية: الجامعة العربية،>> ورقة قدمت إلى: القومية العربية في الفكر والممارسة: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط 3 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو 1984)، ص 495.

38.معاليقي، منذر، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، قدّم له ياسين الأيوبي، ([د. م]: دار اقرأ، [د.ت])، ص 32،33.

39.معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، ط 3، مزيدة ومنقحة، (بيروت: دار الثقافة، 1975)، ص 244.

40.مورجنتاو، هانزجي، الصراع بين الأمم: الصراع من أجل السلطان والسلام، تعريب وتعليق خيري حماد، 3ج (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر ،1965)، ج1، ص98-99.

قائمة المراجع المنشورة باللغة الإنجليزية

1- Hanrieder , Wolfram F. and Graeme P.Auton , The Foreign policies of west Germany , France and Britain , (New Jersey 07632 : prentice-Hall,Inc,englewood cliffs,1980) p.97 .

2- Reilly, Robert R. ,Conducting a War of Ideas with public Diplomacy : An insider's view , in : J.Michael Waller ,ed., Strategic Influence : public Diplomacy ,counterpropaganda ,and political warfare (Washington , DC : The institute of world politics press, 2008),p.121.